

نظرات على الأعياد الدينية والاحتفالات لطبقة أهل الذمة في مجتمع الغرب الإسلامي

من خلال مدونة المعيار للونشريسي (ت914هـ/1508م)

د. زياني الصادق

أستاذ محاضراً

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

البريد الإلكتروني: profziane@yahoo.com

ملخص:

شكلت طبقة أهل الذمة أحد فئات التراتبية الاجتماعية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، حيث حافظت هاته الجماعات على موروثها الثقافي وعاداتها وتقاليدها، ومنها الأعياد وطرق الاحتفال بها. نحاول في هذه الورقة البحثية عرض لنماذج من هذه الأعياد بالاعتماد على كتب النوازل الفقهية، وتخصيصاً مدونة الونشريسي (ت 914هـ/1508م) الموسومة بـ" المعيار المعرب والجامع المغربي عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، حيث تطرقنا إلى الحياة الاجتماعية للغرب الإسلامي، كما عرجنا على النماذج الواردة في المعيار، وطرق وعادات الاحتفال بهذه الأعياد الذميمة، وعلاقتهم بباقي فئات المجتمع بالغرب الإسلامي، مستدلين بجملة من النوازل في شكل مسائل أجاب عليها جملة من الفقهاء.

الكلمات المفتاحية: الغرب الإسلامي، أهل الذمة، الأعياد الدينية، الاحتفالات، النوازل، الونشريسي، المجتمع الإسلامي.

Abstract:

This research paper aims to surround one of the components of society in the Islamic West during the medieval, era represented in « Ahl Dhima » in all their varieties, and we will try specifically to present models for their religious festivals and celebrations, starting from « Nawazel Wancharissi » (d. 914 h/1508 ad), as we tried to clarify the participation of Muslims in these Celebrations and jurists view of it. With highlighting a number of doctrinal issues and their answers to them.

Key words: Islamic West, Ahl Dhima, religious holidays, celebrations, Nawazel Wancharissi, Islamic society.

مقدمة:

زخرت مدونة المعيار للونشريسي بمعطيات هامة حول تركيبة المجتمع المغربي، وطبيعة تراثه المادي واللامادي من عادات وتقاليد، ولعل تنوع تراتبية مجتمعه، قد فتح المجال أمام طبقة من غير المسلمين في الاندماج، والعيش بحرية تامة في أوساط هذا المجتمع، ممثلة في أهل الذمة، الذين مهد لهم روح التسامح الديني من التجذر في بلاد المغرب، والاختلاط بمجتمعها المسلم.

وقد ساعد الخطاب الفقهي لهم في ممارسة طقوسهم الدينية بسهولة، بل دأبوا على الاحتفال بأعيادهم الدينية المختلفة، معتمدين على عادات وتقاليد موروثية أثرت بشكل مباشر في نظام الحياة العامة في المجتمع المغربي، هذا الأخير نلاحظه يندمج بشكل غير مباشر في الاحتفال معهم بهذه الأعياد، أو قبول هداياهم، وهذا بطابع الجيرة، والمجاورة.

لقد برزت الأهمية التاريخية لمدونة المعيار، إذ ساهمت بشكل كبير في الإفصاح عن جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية والدينية ببلاد المغرب (إفريقية والمغرب)، وبلاد الأندلس، لكن الإشكاليات التي نطرحها في هذا المجال هي: فيما تمثلت أعياد أهل الذمة التي أبرزتها مدونة المعيار؟ وكيف كانت عادات وطرق الاحتفال بها؟ وماهي صور الاختلاط والمشاركة الضمنية للمجتمع المغربي المسلم لهذه الطبقة في هذه أعيادها وطقوسها الدينية؟ وكيف تصدى الخطاب الفقهي النوازي لهذه البدع، المكروهات، والمحرمات؟

لمعالجة هذه الإشكاليات قمنا بقراءة وتحليل المعلومات الواردة في مدونة المعيار، مستعينين في ذلك بالمقاربات المنهجية، كما استعنا أيضا ببعض الدراسات التاريخية والفقهيّة المصدرية والمعاصرة، وهذا في محاولة لتتبع مكامن التراث المادي واللامادي لطبقة أهل الذمة من مجتمع بلاد المغرب في مدونة المعيار، وكانت دراستنا على النحو الآتي:

أولا: المجتمع المغربي الإسلامي وأهل الذمة...التواصل والاندماج

إن الإشارات الواردة في نصوص المدونة (الونشريسي، 1981)، تبرز بشكل واضح التركيبة الدينية للمجتمع المغربي خلال هذه الفترة من الزمن، وبالأخص تواجد طبقة أهل الذمة (بوتشيش، د.ت، ص:66) (شحلان، 2006، ص: 23-27) (إيمان، 2014-2/15، ص:3) بشتى طوائفها، اليهودية؛ المسيحية؛ النصرانية (الونشريسي، 1981، ج2/ص: 214-219؛ ج6/ص: 70-71؛ ج11/ص: 92 و150-151 و293). فهذه النصوص تقدم لنا إشارات مباشرة وغير مباشرة حول الواقع الديني،

الاقتصادي، والاجتماعي لهذه الطبقة في أوساط المجتمع المغربي المسلم، مما يؤكد تواصل تعايش وحرية الأديان اللذان عرفا منذ عهود سابقة (بوتشيش، دت، ص: 65-112) (عبد الرحمن، 2001، ص: 111-124) (علاوة، 2013، ص: 9-38) (عطاي، 2011-12، ص: 171-197).

إن المعطيات التي يقدمها لنا أبو جعفر الداودي (ت402هـ/1012م) صاحب كتاب الأموال (الداودي، 2008)، تؤكد على استقرار جماعات أهل الذمة من غير المسلمين حتى نهاية القرن الرابع الهجري/10م، وهذا في المناطق الواقعة ما بين أشير والقلعة الحمادية، خصوصا سسواله (علاوة، 2013، ص: 34)، مما يرجح تواصل الموروث الثقافي في بقايا الجماعات غير المحلية، ونقصد هنا الروم، والأفارقة، مع استمرارهم في التعبد وفق شعائهم الدينية المعتادة (بوتشيش، دت، ص: 70-76 و96-98) (عطاي، 2011-12، ص: 174-175 و192).

لقد استطاع أهل الذمة من بسط نفوذهم في المنطقة، بحيث حدث استقرار مميز للجالية اليهودية، والنصرانية ببلاد الغرب الإسلامي عموما، والأوسط (الجزائر) خصوصا، وهذا ما نلاحظه في نازلة يهود توات، والتي أبرزها الونشريسي في مدونته (الونشريسي، 1981، ج 2/ص: 214-219 و250-253). ولم يكن لاستقرار أهل الذمة بشتى طوائفهم بحواضر المغرب الاوسط حديث العهد، بل تؤكد دراسات مصدرية كثيرة على انتشار اسقفيات مسيحية، وبقايا للمسيحيين في قلعة بني حماد، بجاية، بونة، والمجالات القريبة من تلمسان خمس إلى ستة قرون ما بعد الفتح الاسلامي لبلاد المغرب (علاوة، 2013، ص: 29).

وتؤكد وثائق الجنيزة مما لا يدع من شك، على استمرار جماعات يهودية على غرار المسيحيين ببلاد المغرب الأوسط، وتلمسان تحديدا (علاوة، 2013، ص: 30). وقد أشار في ذلك الباحث المميز علاوة عمارة على وجود جماعات يهودية بمدينة تلمسان، كان لها الفضل في نقل زيري بن مناد إلى أشير قبل أن تعود إلى مستقرها لاحقا، أين كانت على الأرجح مستمرة في ممارسة شعائرها الدينية في ظل حكم الموحدين لبلاد المغرب وما بعده (علاوة، 2013، ص: 30).

ويقول العربي عقون أنه: "لم يمح إسلام الأمازيغ نهائيا آثار المسيحية في إفريقيا، وقد أشار بعض المؤرخين والجغرافيين العرب إلى استمرار وجود كنائس أفريقية عدة قرون بعد الفتح العربي." (عقون، 2010، ص: 49)؛ في حين أثبت علاوة عمارة استمرار الموروث الثقافي الديني واللغوي لهذه الفئة في بلاد الزاب من أرض المغرب الأوسط، فيقول في هذا: "من الناحية البشرية هناك تعدد كبير في العناصر والجاليات المستقرة بحواضر الزاب، حيث يبرز بصورة جلية الانتشار الواسع للأفارقة

والروم بالمدن طينة وباغاي. إنه لا مجال للشك في استمرارية الأفارقة كبقايا للثقافة اللاتينية بمسيحتها الرومانية." (علاوة، 2011-9، ص 77).

لقد أبرزت النصوص الفقهية المتأخرة ما بين القرنين 8-10هـ/14-16م، شهادات مميزة حول تعايش طبقة أهل الذمة ضمن المجتمع الإسلامي، وفي مختلف المجالات الاجتماعية، الدينية، والاقتصادية، كما مكنتنا من معرفة ضوابط هذا الاستقرار بين أوساط المجتمع المسلم بمختلف حواضر بلاد المغرب الأوسط خصوصاً، بالأخص جوانب: الجزية؛ الضرائب؛ المغارم، والتي استمر فرضها، وتطبيقها على مختلف فئات طبقة أهل الذمة (العقباني، د.ت، ص: 143-152).

إن الشهادة التي يقدمها لنا صاحب المعيار حول طرق الفصل في نزاعات اليهود والنصارى من طبقة أهل الذمة في مجالس المسلمين، تبرز بحق مدى تغلغل هذه الطبقة في مجتمع بلاد المغرب (الونشريسي، 1981، ج2/ص: 214-219، 232، 250-275؛ ج6/ص: 53، 70، 71، 421، 433)، وهو إنما يؤكد أيضاً على التسامح الديني الذي أبداه واستمر فيه المسلمون فيما يخص فئات هذه الطبقة (نميش، 2014، ص: 44، 64، 73) (عطابي، 2011-12، ص: 192)، وأما المظالم بين أهل الذمة فقد كانت ترجع إلى مجالس قضاء المسلمين، وهذا لفرض القانون الإسلامي عليهم، وتذكيرهم الدائم لهم بأنهم في أرض ومجتمع مسلم (بوتشيش، د.ت، ص: 73).

ورغم هذا، فإن هذه الطبقة كانت لا تتوانى في كسر حاجز وقيود الضوابط التي فرضها عليهم فقهاء المغرب الأوسط خاصة، فيلجؤون إلى التآمر على المسلمين، وفي هذا حوادث وقعت كثيرة (الونشريسي، 1981، ج2/ص 253)، حين تلف رأيهم، وانبسط لهم شيطانهم حرية في غير موطنها، لما عادوا لبيع المسكرات من الخمور ببلاد المسلمين، فكان حظهم من التنكيل بعدما أمر لهم السلطان بذلك العقاب، نكالا لما اقترفت أيديهم من نكث للعهود والمواثيق (الونشريسي، ج2/ص: 250).

أما عن عددهم، فهناك بعض الإشارات في مصادر مختلفة، وخلال فترات متباينة: فهذا صاحب جغرافية صورة الأرض، يبرز انتشارهم بمحلات وحواضر المغرب الأوسط، على غرار مدينة تنس الساحلية، وهذا من خلال ذكره اعتماد المسلمين نظام الجوالي، وهو ما يؤكد انتشار اليهود التجار بهذا المجال الجغرافي (ابن حوقل، 1938، ص: 77). في حين يؤكد صاحب المعيار أن أعدادهم قد تزايدت بعد استقرارهم ببلاد المغرب قادمين من الأندلس، بالأخص على عهد علي بن يوسف ابن تاشفين، أين استقروا بسواحلها (الونشريسي، 1981، ج8/ص: 56). كما يحصر لنا الحسن الوزان (توفي بعد 957هـ/1550م) ديارهم وأعدادهم بتلمسان في النصف الأول من القرن 10هـ/16م،

فيقول: "وفيها فنادق على النمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وحرارة تضم نحو خمسمائة دار اليهود، كلهم تقريبا أغنياء..." (الوزان، 1983، ص: 56).

ويبقى أن نتصور اندماج طبقة أهل الذمة في مجتمع إسلامي تسوده روح التسامح الديني، لهذا فقد تواصلت فئاته المختلفة في أداء شعائرها الدينية دون تضييق من السلطة، وحتى المجتمع المغربي، واستمروا كذلك في عاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها، بالأخص في مجال الاحتفالات الدينية في البوادي والحواضر المغربية، لكن مع بقائهم تحت الرقابة الدائمة للسلطتين السياسية، والفقهية، وهو ما أكدته المصادر الإخبارية، والفقهية ممثلة في كتب النوازل على غرار المصدر محل الدراسة ممثلاً في مدونة الونشريسي.

ثانياً: أعياد أهل الذمة - قراءة في نماذج من مدونة الونشريسي -

أشار الونشريسي إلى الكثير من أعياد أهل الذمة ببلاد المغرب الأوسط خصوصاً، وبلاد المغرب عموماً، ومدى تشبه أهل البادية، والحضر بهذه الأعياد، وفي مقدمتها عيد رأس السنة أول ليلة يناير (الونشريسي، 1981، ج6/ص: 70)، وعنها يقول الونشريسي: "فاتح السنة الميلادية... ليلة ينير التي يسمونها الناس الميلاد" (الونشريسي، 1981، ج11/ص: 150). كما أورد لنا صاحب المعيار عيداً آخر لأهل الذمة ممثلاً في يوم العنصرة، وهو من أعياد طبقة أهل الذمة بالمجتمع المغربي أو كما يسمى المهرجان، ويمثل يوم مولد سيدنا يحيى بن مريم عليه السلام (ما يفعل من العوائد يوم العنصرة)، والظاهر أن هذا العيد قد عرف في البادية وبعض الحواضر من بلاد المغرب، يقول في هذا الونشريسي: « بالبادية يوم العنصرة... مجانين الحاضرة يفعلونه وهو خطأ في الدين والأدب" (الونشريسي، ج11/ص: 92).

إن معطيات الونشريسي نجدها مكتملة بصورة أدق في نصوص الحسن الوزان، والذي واكب عصر الونشريسي، وبعده بحوالي نصف قرن تقريباً، ويذكر أنه وجد بفاس من المغرب الأقصى: "بعض أسماء الأعياد التي كان النصارى يحتفلون بها، وما زال الناس يستعملونها اليوم، وفي كل مدينة (ويقصد في غير فاس) يلاحظ بعض الاحتفالات والعادات التي خلفها النصارى." (الوزان، 1983، ج1/ص: 231). هذه المعطيات المصدرية في نظرنا تؤكد على تشبع الكثير من مجتمع بلاد المغرب بالديانة النصرانية، وطقوس عبادتها، بل تواصل تام لهذه الأعياد والطقوس حتى النصف الأول من القرن العاشر الهجري/16م.

ويضيف لنا الوزان الكثير من الأعياد التي استمرت في مجتمع بلاد المغرب في عصره، ومنها ما ذكره الونشريسي، على غرار عيد ميلاد المسيح، يذكر ذلك فيقول: "لا تزال بقايا من الأعياد التي خلفها

المسيحيون، ينطق فيها الناس بكلام لا يعرفون له معنى (التشبه)...ليلة عيد المسيح... (الوزان، ج1/ص:114، 258).

ويواصل صاحب المدونة إبراز أعياد أهل الذمة ببلاد المغرب، فيذكر عيد النيروز أو الربيع، وهو من الأعياد المتواترة بين أهل الذمة، يذكره الونشريسي فيقول: "النصاري في نيروزهم ومهرجاناتهم." (الونشريسي، ج11/ص:151). والواضح أن الكثير من أهل بلاد المغرب الأوسط وغيرهم قد تشبهوا بأمة النصاري في احتفالهم بهذا العيد السنوي، حتى صاروا من قبيلهم وفي دينهم وعباداتهم، مصداقا لقوله (ﷺ): "من تشبه بقوم فهو منهم" (الونشريسي، ج11/ص:151). والظاهر أن هذا العيد لم يكن مقتصرًا على بلاد المغرب فقط، بل يقدم لنا محمد الدرداوي نقلًا عن ابن بسام (ت 542هـ/1147م) في ذخيرته حضور هذا العيد بين مجتمع الأندلس خلال القرن الهجري السادس/12م، وهو ما يرجح انتقال هذه الاحتفالات والأعياد إلى بلاد المغرب أو منها. (ابن بسام، 1997، ق 1-مج1/ص: 561) (محمد الدرداوي، 2013).

ومن أعياد أهل الذمة ببلاد المغرب، يضيف صاحب المدونة عيد الحجوز، وقد انتشرت بين أهل المغرب، وظهرت كتقليد وبدع متواترة بين أهلها، يقول عن ذلك: "ليلة الحجوز وما يفعله أهل بلدنا (ويقصد في بلاد المغرب) فيها" (الونشريسي، ج11/ص:293)، والظاهر أن هذا العيد قد وجد طريقه إلى بلاد الأندلس، يذكر ذلك كمال أبو مصطفى فيقول: "الحاجوز أو ليلة العجوز، يُحْتَفَلُ بها في الأندلس في السادس والعشرين من فبراير (لكل عام)" (كمال، 1997، ص: 46 المتن، 47 الهامش). ويلاحظ على مجتمع بلاد المغرب التشبه التام بالمسيحيين، فقد أخذوا عنهم أعيادهم، في شاكلة عيد الدانتسيا، وهو إسم لاتيني، ويقصد بمعناه الأسنان، والهدف من هذا العيد هو الاحتفال بظهور أسنان الأطفال، فتقام لذلك الولائم، ويستدعى لها أطفال من نفس سنه (بوتشيش، ص: 114). كما يبرز عيد آخر يسمى يوم القديس يوحنا، أين جرت العادة ببلاد المغرب على الاحتفال بهذا اليوم، تيمنا بهذا القديس، بإيقاد النيران الكثيرة في جميع الأحياء (الوزان، ج1/ص:258). ولم يكن حال بلاد الأندلس عن بلاد المغرب ببعيد، فقد تعودوا على مشاركة أهل الذمة في أعيادهم الدينية، ويرجع ذلك إبراهيم بوتشيش إلى: "الحياة المشتركة التي عاشها الطرفان جنبًا إلى جنب قرونًا طويلة"؛ وهذا ما أدى بحسبه إلى: "المشاركة الروحية بين المسلمين والأندلسيون النصاري" (بوتشيش، ص:113). والملاحظ تميز الأندلسيين على أهل بلاد المغرب في بعض الأعياد الدينية للنصاري، وهذا على غرار عيد سان خوان الذي يحتفلون به دون مجتمع بلاد المغرب (بوتشيش، ص:113).

مما سبق نخلص إلى أن تأثير أهل الذمة قد انتقل في الميدان الاجتماعي والديني، حيث تمكنت العادات النصرانية؛ المسيحية؛ اليهودية، من نفوس المغاربة وأصبحت ضمن عاداتهم، حيث عمدوا إلى المحافظة عليها، والالتزام بتقليدهم في طبيعة احتفالهم بها، فأصبح الكثير من أهل حواضر بلاد المغرب ينظمون هذه الأعياد بشكل دائم، ويورثونها لأبنائهم، بحثهم على الاقتداء بهم، وهو ما حول مجتمع المغرب في الكثير من الأحيان عن الطريق السوي الذي رسمه القرآن والسنة.

ثالثاً: الخطاب الفقهي وعادات وتقاليد أهل الذمة

وردت في المدونة بعض المسائل المتعلقة بعادات أهل الذمة في بلاد المغرب، واجتمع في الخطاب الفقهي على رأي يكاد يكون واحداً، وهو حرية الاحتفال بأعيادهم الدينية دون مشاركة المسلمين لهم، وقد جمعنا بعضاً من هذه المسائل نوردها كآتي:

[مسألة فيما يفعل من العوائد يوم العنصرة]

نص المسألة: "وسئل محمد بن عمر بن لبابة عما يفعل بالبادية يوم العنصرة من نشر الثياب وصم الخيل قبل الصلاة أسنة أم مستحب أم مكروه؟"

- إجابة محمد بن عمر بن لبابة: "مجانين الحاضرة يفعلونه وهو خطأ في الدين والأدب"
- إجابة يحيى بن يحيى الليثي: "وكذلك إجراء الخيل والمباراة في العنصرة لا يجوز ذلك وكذلك ما يفعله النساء من وشي بيوتهن يوم العنصرة. وذلك من فعل الجاهلية. وكذلك إخراج ثيابهن إلى التّدا بالليل ومكروه أيضاً تركهن العمل في ذلك اليوم، وأن يجعل ورق الكرنب، والخضرة، واغتسالهن بالماء ذلك اليوم لا يحل أصلاً إلا لحاجة من جنابة". ومن يفعل ذلك فقد أشرك في دم زكرياء وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﷺ من كثر سواد قوم فهو منهم ﷺ. ومن رضي عملاً كان شريكاً من عمله، هذا فيمن رضي ولم يعمله فكيف من عمله وسنّه سنة. والله نسأل التوفيق" (الونشريسي، ج11/ص: 92، 151).

[مسألة فيما يهديه اليهود في أعيادهم للمسلمين]

نص المسألة: "وسئل القاضي أبو عبد الله بن الأزرق عن يهود يصنعون رغائف في عيد لهم يسمونه عيد الفطر، ويهدونها لبعض جيرانهم من المسلمين، فهل يجوز قبولها منهم وأكلها أم لا؟"
- إجابة أبو عبد الله بن الأزرق: "قبول هدية الكافر مني عنه على الإطلاق نهي كراهة قال ابن رشد: لأن المقصود في الهدايا التودد، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﷺ تهادوا تحابوا وتذهب الشحنةاء ﷺ يريد وقد نهينا عن مولاتهم والقاء المودة إليهم لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾.

-إجابة الامام أبو عبد الله بن عرفة: "وقال الشيخ أبو عبد الله بن عرفة تفريعا على كلام الشيخ أبي الحسن القاسبي في منع قبول هدية المسلم مما يفعل في أعياد الأعاجم تشبيها بهم، فلا يحل على هذا قبول هدايا النصارى في أعيادهم للمسلمين، وكذلك اليهود. قال: وكثير من جهلة المسلمين يقبل ذلك منهم في عيد الفطيرة.

-إجابة ابن الحاج: "في ذلك تغليظ شديد ومبالغة في الإنكار على من قبل ذلك منهم، خصوصا إذا كان ممن يشار إليه من المسلمين وتختص بمزيد الوجاهة فهم ولا شك أن من استبرأ لعرضه ودينه، وتحامى على الهجوم على حى المتشبهات، وترفع على رذيلة الانتساب إلى الجهل، ودناءة القبول لهدية عدو الدين في مثل هذا الوضع، أولى به ان يعمل على مقتضى ما ارتضاه هذان الشيخان الجليلان والله تعالى أعلم وبه التوفيق" (الونشريسي، ج11/ص:112).

[مسألة في الاحتفال بفتح السنة الميلادية]

نص المسألة: "وسئل الأصبغ عيسى بن موسى محمد التميمي عن ليلة ينير التي يسمونها الناس الميلاد... أترى ذلك أكرمك الله بدعة محرمة لا يحل لمسلم أن يفعل ذلك، ولا ان يجيب أحدا من أقرابه وأصهاره إلى شيء من ذلك الطعام الذي أعده لها؟ أم هو مكروه ليس بالحرام الصراح؟ أم مستقل؟ ... فبين أكرمك الله ما صح عندك في ذلك إن شاء الله".

-إجابة الأصبغ عيسى بن موسى محمد التميمي: "قرأت كتابك هذا ووقفت على ما عنه سألت وكل ما ذكرته في كتابك فمحرّم فعله عند أهل العلم. وقد رويت الأحاديث التي ذكرتها من التشديد في ذلك ورويت أيضا أن يحيى بن يحيى الليثي قال: لا تجوز الهدايا في الميلاد من نصراني ولا من مسلم، ولا إجابة الدعوة فيه، ولا استعداد له. وينبغي ان يجعل كسائر الأيام" (الونشريسي، ج11/ص:150-151).

[مسألة في المتشبهين من أهل المغارب بالنصارى في النيروز]

نص المسألة: "وسئل الأصبغ عيسى بن محمد التميمي في المتشبهين من أمته بالنصارى في نيروزهم ومهرجانهم".

- إجابة الأصبغ عيسى بن موسى محمد التميمي: "ورفع فيه حديثا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوما لأصحابه ﷺ إنكم مستزلون بين ظهрани عجم، فمن تشبه بهم في نيروزهم ومهرجانهم حشر معهم ﷺ.

- إجابة ابن كنانة: "قال يحيى وسألت عن ذلك بن كنانة، وأخبرته حالنا في بلدنا فأنكر وعابه وقال: الذي يثبت عندنا في ذلك الكراهية، وكذلك سمعت مالكا يقول: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من تشبه بقوم حشر معهم ﷺ. (الونشريسي، ج11/ص:151-152).

[مسألة في إقامة بعض العوائد ليلة الحجوز]

نص المسألة: "وسئل بن وضّاح من قبل المعلم محمد بن خميس عن ليلة الحجوز وما يفعله أهل بلدنا فيها".

- إجابة محمد بن خميس: "ذلك مكروه وعابه عيبا شديدا ونزع بأي من القرآن. منها قوله تعالى: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾. وقوله: ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾. (الونشريسي، ج 6/ص: 70؛ ج 11/ص: 150).

رابعاً: طرق الاحتفال بأعياد أهل الذمة

أورد الونشريسي في المدونة الكثير من العادات التي اعتمدها أهل الذمة في احتفالاتهم بأعيادهم الدينية، كموروث ثقافي استمر لقرون في المجتمع المغربي، فمن عاداتهم عند الاحتفال بفاتح السنة الميلادية أنهم: "يجتهدون لها في الاستعداد، ويجعلونها كأحد الأعياد، ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف المثوبة لوجه الصلة، ويترك الرجال والنساء أعمالهم صباحتها تعظيماً لليوم، ويعدونه رأس السنة" (الونشريسي، ج 6/ص: 70؛ ج 11/ص: 150). ولم يزل الاحتفال بمثل هذه الأعياد يصاحبه استخدام الموسيقى لدى اليهود، كما صاحبها أدعية دينية تسمى "الحزانة أو البيوط" تنشدها مجموعات متخصصة، وقد كان لكل مناسبة ادعية معينة (عبد الرحمن، 2001، ص: 127).

لقد استمرت هذه العادات في وسط المجتمع المغربي حتى نهاية القرن العاشر الهجري/16م، وهذا الوزن يصف لنا طرق الاحتفال بعيد رأس السنة فيقول: "ففي ليلة ميلاد المسيح يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة كالكرنب واللفت والجزر وغيرها... ويأكلون تلك الأطعمة في تلك الليلة، ويضع الأطفال في اليوم الأول من السنة أقنعة على وجوههم ويتوجهون إلى الاعيان يطلبون منهم الفواكه وهم ينشدون أغانيهم الصبانية" (الوزان، ج 1/ص: 258).

وفي عيد العنصرة، تُجرى احتفالات مختلفة، منها إجراء مسابقات الخيل، والمبارزة، كما توشي النساء بيوتهن يوم العنصرة تمثلاً بالجاهلية، وتخرجن الثياب إلى النداء ليلة قبل الاحتفال، ويجعل فيه ورق الكرنب، والخضرة وتغتسلن بالماء في يوم العيد، وتتوقفن على العمل يومها (الونشريسي، ج 11/ص: 92، 151). وجرت العادة في عيد النيروز صنع اللعب المصورة "الزيافات"، ويعرضونها في الطرقات والأسواق لبيعها علناً، يقول في ذلك الونشريسي: "اللعبة المصنوعة... يبيع الملاعب المصنوعات في النيروز كالزيافات وشبهها... ثمناها" (الونشريسي، ج 6/ص: 70).

واعتاد أهل المغرب من النصارى في البادية احتفاءً بليلة الحجوز أو العجوز بإقادة النيران تحت الثمار، والاستحمام، وغسل دوابهم، ثم أداء صلاة خاصة بهذا اليوم (كمال، 1997، ص: 46). يذكر

ذلك الونشريسي: " مايفعل من العوائد يوم العنصرة: يفعل بالبادية يوم العنصرة من نشر الثياب وشم الخيل قبل الصلاة" (الونشريسي، ج11/ص: 151).

ويذكر الونشريسي عيداً لليهود تعودوا على الاحتفال به بين أهل المغرب فيقول: " ما يهديه اليهود في أعيادهم للمسلمين: اليهود يصنعون رغائف في عيد لهم يسمونه عيد الفطر، ويهدونها لبعض جيرانهم من المسلمين" (الونشريسي، ج11/ص: 111). والظاهر أنه من المسلمين ببلاد المغرب من كان يقبل هذه الهدايا دون استثناء أو استشارة الفقهاء، رغم أن النية من هذه الهدايا كان التودد لجليهم لدينهم اليهودي (الونشريسي، ج11/ص: 112).

خاتمة:

لقد أماطت النصوص الفقهية للمعيار اللثام عن الموروث اللامادي لطبقة أهل الذمة في وسط المجتمع المغربي، حيث استطاعت عرض الكثير من أعياد أهل الذمة، من منطلق استمرارية موروثهم الثقافي، وتمثلت هذا الأعياد في: عيد العنصرة، وعيد رأس السنة، وليلة الحجوز أو العجوز، وعيد الفطر اليهودي.

كما اتضحت صورة طرق الاحتفال بهذه الأعياد، ومشاركة المجتمع المغربي المسلم لهم، وهو ما أبرزته الكثير من نصوص الفقهاء، التي أوضحت اسهام سكان البادية والحضر على السواء في إنجاح وتواصل الموروث الثقافي لأهل الذمة ببلاد المغرب، حيث قبلوا هداياهم وتبادلوها معهم، وأكلوا أطعمتهم التي كانت تعد خصيصاً لهذه الاحتفالات، واشتروا لعيهم (الزيافات وشبهها) التي كانت تصنع بمناسبة عيد رأس السنة والنيروز.

ولم تقف طائفة الفقهاء مكتوفة الأيدي عما يحدث من انقسام وانفلات داخل المجتمع المغربي المسلم، حيث ظهرت الكثير من المسائل من أهل الاسلام الغيورين، وقد وردت في شكل نوازل أرسلت للإفتاء في شتى الحواضر والبلدان، وقد تصدى للإجابة عنها فقهاء من شاكلة: أبو عبد الله بن الأزرقي، محمد بن خميس، الأصبغ عيسى بن موسى محمد التميمي، ابن كنانة، ابن الحاج، محمد بن عمر بن لبابة، وابن عرفة. ومالت جل إجاباتهم إلى التشدد في مخالطة اليهود والنصارى، ووصلت حتى تحريم التعامل معهم في أعيادهم خاصة. وفي كل هذا لم لشم المجتمع المغربي ورده لجادة الحق والصواب.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (1997)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة: بيروت، ق1-مج1.

- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (1938)، كتاب صورة الأرض، مطبعة بريل: ليدن.
- الداودي، أبو جعفر أحمد بن نصر المالكي (2008)، كتاب الأموال، ط1، تحقيق محمد رضا سالم شحاتة، دار الكتب العلمية: بيروت.
- العقباني، أبو عبد الله بن قاسم بن سعيد (د.ت)، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي: د.م.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي (1983)، وصف افريقيا، ط2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي: بيروت، ج2.
- الونشريسبي، أبو العباس أحمد بن يحيى (1981)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي: بيروت.
- أبو مصطفى، كمال (1997)، جوانب من حضارة الغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسبي، مؤسسة شباب الجامعة: القاهرة.
- نميش، سميرة (2014)، دور أهل الذمة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة تلمسان: الجزائر.
- الدرداوي، محمد (2013)، "صور من مشاركة المسلمين لسكان الاندلس في أعيادهم من خلال النوازل الفقهية"، مجلة الإصلاح الإلكترونية.
- http://alislamag.com/index.php?mayor=contenu&mayaction=article&article_id=1881&idlien=189.
- بشير، عبد الرحمن (2001)، اليهود في المغرب العربي، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية: القاهرة.
- بوتشيش، إبراهيم القادري (د.ت)، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، دار الطليعة، بيروت.
- شحلان، أحمد (2006)، التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: المملكة المغربية.
- عبد الرحمن، حسن إيمان (2014)، "التعايش السلمي للمسلمين مع أهل الذمة"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 2/15، مع8.
- عطابي، سناء (2011)، "واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 12.

- العقون، العربي (2010)، الأمازيغ عبر التاريخ-نظرة موجزة في الاصول والهوية، ط1، التنوخي للطباعة والنشر: الرباط.
- عمارة، علاوة (2011)، "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، المجلة الخلدونية، العدد 09.
- عمارة، علاوة وآخرون (2013)، مغرب أوسطيات -دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط-، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة: الجزائر.